تطور العلوم الاجتماعية

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

يتبين من تاريخ علم الاجتماع أنه لا يزال فى دور التكوين . ولعل سبب ذلك يرجع إلى ما يشوبه من نظريات فلسفية أفسدت عليه استقامة عوده ، وإلى عدم استقرار فروعه وتحديد غايتها واستخلاص طرقها

فنرى تاريخ الأديان مثلاً تتنازعه تيارات كثيرة ؛ وعلى حسب اختلاف اتجاه تلك التيارات وقوتها تختلف طريقة البحث ونتيجته . وكثير من مؤرخى الأديان الكبرى كاليهودية والنصرانية والإسلام يرون أن للأديان منشأ واحداً لأنها جميعاً تعترف بوجود قوة خالقة واحدة لهذا الكون يشعر بوجودها الإنسان حين النظر فى أمر تكوينه والبحث عن آثار تلك القوة الممثلة فى وجداته . أخذ هؤلاء العلماء يردون ويفسرون جميع الظواهر الكونية والاجتماعية والنفسية إلى أصل واحد يحيط بها ويعبر عنها بأسلوب لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه الشك ، هذا الأصل هو الكتب المقدسة وآثار الأنبياء . من أجل ذلك توفرت جهود المؤرخين على جمع وترتيب شتات هذه الكتب وتلك الآثار ، وانكبوا على دراستها ليستخرجوا منها أسباب الحوادث والوقائع التاريخية مفسرين كل هذا حسب ما لديهم من اعتقادات راسخة وإيمان ثابت فى صحة روايات ووقائع تلك الكتب والأحاديث[1]

وهناك فريق آخر — وهم الفلاسفة[2] ومن إليهم — يرى أن نشأة الأديان ترجع فى أصلها إلى عوامل نفسية لما فطر عليه الإنسان من حب ولما تكون فيه من غرائز ، وإن هذين العاملين يتنازعان القوى الروحية للانسان ، وعلى قدر تغلب أحد هذين العاملين على الآخر تتعين طبيعة الدين وقوته . فالدين عند الأمم المحدودة المدنية مثلاً هو دين غريزى ، لأن أصله غريزة الخوف والتنازع على البقاء . وقد نعته « برجسن » بأنه دين خامد[1] لخلوه من عناصر التطور والتجدد . وأما الأديان الكبيرة كاليهودية والنصرانية والإسلام والبرهمية فإنها تصدر عن عاطفة الحب التى يتميز بها الصوفى فى تلك الأديان . ومن أجل ذلك اعتبر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام أنبياء لتميزهم بحبهم الخالص للعالم كله ، وتفانيهم فى العمل من أجل سعادته ، وقدرتهم على الإشراق والتقمص فى قوة الكون ذاتها ، ليمثلوها فى أجلى مظاهرها وأتم معانيها من خلق وتجديد ، وهذه هى الأديان (المتطورة)[2]

ولكن علماء الاجتماع لم يرضهم هذا الرأى أو ذاك ، لأن العوامل النفسية والاعتقاد بوجود قوة واحدة خالقة ومدبرة لهذا الكون لا يمكن اعتبارها أساساً ومصدراً للأديان ، فهناك أديان كبيرة كالبرهمية والبوذية — نشأت وانتشرت ولم تزل تعم جزءاً كبيراً من العالم ، على رغم أنها خالية من مثل هذا الاعتقاد . ونرى أيضاً أن هناك أدياناً متعددة عند الأمم المحدودة المدنية — كالقبائل الاسترالية والزنجية وغيرها — لها أوضاع وأسس تشبه فى كثير من ظواهرها الأديان الكبيرة ، لأنها قادرة على التمييز بين الحلال والحرام وأمر القيام بعبادات منظمة ؛ وهذه الأديان أيضاً لم تقم ولم تتحدد بمثل ما تتقيد به النصرانية أو الإسلام من ضرورة الشعور بوجود هذه القوة الذاتية ؛ وكما أنها لا تشعر الفرد بأن هناك قوة روحية كامنة فى الإنسان وخارقة للعادة تدفع الزنجى أو الاسترالى إلى حب غير بنى جنسه كما يعمل الصوفى فى اليهودية أو النصرانية . فالزنجى أو الاسترالى يتقرب لأبناء جنسه ويفنى فيهم لأنه لا يرى سواهم حوله ، فقبيلته هى كل شىء

---

(١) من الصعب أن نحصى هنا عدد هؤلاء المؤرخين لكثرتهم ولكن نذكر أهمهم Ad. Loda; Israel, des Origines au Milieu du VIII siècle; col. de L'evolution de L'humanité. Paris.

Ch. Guignebert; Jesus; Col. de Levolution de L'humanité; Paris 1933

I. Goldziher; Mohammedanische Studien; Halle 1890

P. W. Schmidt; Origine et Evolution de la religion; Tra. Française, Grasset 1931.

أحمد أمين بك « فجر الاسلام » و« ضحى الاسلام »

(٢) مثل هنرى برجسن H. Bergson وجورج فريزر G. Frazer وتيلر Taylor وماكس ملر M. Muller وغيرهم

(١) التعبير عن كلمة Statique الواردة فى كتابه Les Deux Sources de la Morale et de la Religion; Alcan, Paris 1932

(٢) التعبير عن كلمة Dynamique الواردة فى كتاب برجسن السالف الذكر .

كذلك حين يقدس هذا الزنجي معبوده « أي توتمه » ويفني فيه بحبه له ، يفعل ذلك ، بل وأكثر من ذلك ، لأن معبوده هو رمز قبيلته ، وأن الفرد والقبيلة هما وحدة لا تتجزأ .

وأما الصوفي فحبه الشامل للكون وتفانيه في القوة الخالقة له ، لأنه مجبر على الإحساس — دون وعي لحالته — بهذا الشعور ، لأن الجماعة التي يعيش فيها تلهمه ضرورة حب غيره من عامة البشر ، بل وحب الكون عامة ، لأن هذه الجماعة هي خلاصة العناصر المادية والروحية للإنسانية كلها ، ولأنها رمز قوة الكون ، لذلك كان هم الصوفي أن يسمى ليفنى في هذه القوة ذاتها

من أجل ذلك يقرر علماء الاجتماع أنه إذا فرض واعتبرت الجماعة البشرية مصدر الأديان مهما اختلفت عصورها وتباينت بيئاتها فقد يكون في ذلك حالة أدعى للطمأنينة وأدنى للصواب حين يعمل الإنسان لكشف حقيقة الأديان وتحليلها إلى عناصرها الأساسية ، وفي هذا الاتجاه سار إميل دركيم[1] Durkneim وتلامذته بفرنسا

وهذه وإن كانت محاولة جريئة قد تهيئ لنا مجالاً أوسع للبحث والتنقيب عن أصل كثير من الظواهر الدينية ومعتقداتنا وأساس إيماننا

***

ولم يكن حظ الجغرافيا البشرية أوفر من حظ علم تاريخ الأديان من حيث القدرة على استخلاص قوانينها العامة والاسترسال في تحقيقها . فكثير من الجغرافيين[2] يرون أن البيئة الاجتماعية — بما فيها من تنوع في النشاط المادي والروحي — هي نتيجة حتمية للتأثيرات والعوامل الطبيعية للمنطقة التي تشغلها تلك البيئة الاجتماعية ؛ فإذا أينعت الأرض وعم خيرها وصلح جوها شبعت الجماعة وكثر نشاطها وعم فرحها وتنوعت ظواهرها الاجتماعية وتميزت عناصرها الجنسية

(١) أنظر كتاب : Les Formes Elementaires de la vie Religieuse; Alcan, Paris 1912

(٢) مثل فيدال دى لابلاش Vidal de Lablache ورتزل Ratzel وكثير غيرهما من الجغرافيين في القرن التاسع عشر

وهناك فريق آخر من العلماء[1] يقولون إن غاية علم الجغرافيا البشرية هي دراسة العلاقة بين الإنسان وبين البيئة الجغرافية التي يسكنها وأثر كل منهما في الآخر وتحديد ما يتركه هذا الأثر في التكوين الاجتماعي . ويظهر أن هذا هو الرأي الأخير الذي استقر عليه عامة الجغرافيين والاجتماعيين

***

وأما علم الأنتولوجيا[2] فإنه لم ينج أيضاً من تلك العقبات الوضعية عند نشأته ، فقد اعتبره « كترفاج » أحد فروع الزيولوجيا وجاء بعده « بروكا » Broca وتلامذته « أرنست هامى » E. Hamy وفرنو « Verneau » فتوسعوا في فهم هذا العلم ووضعوا أسسه المختلفة ، فضموا إليه دراسة المدنيات واللغات ، وتسابقت الدول بعد ذلك في إدخال تعديلات وزيادات في مناهجه وأسسه كل منها حسب فهمها له والغاية التي ترجوها منه ؛ فبعض هذه الدول كان يتخذه أداة صالحة للاستعمار ، وبعضها الآخر يتناوله على أنه علم قائم بذاته له تجاربه وأوضاعه ؛ وعني به كثيراً في الفترة الأخيرة في ألمانيا وانجلترا وفرنسا وأمريكا[3]

***

وهكذا حال بقية العلوم الاجتماعية الأخرى مثل علم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد الاجتماعي وغيرها لم تكن أثبت وأدعى للطمأنينة فيما سبق من العلوم ، لأن ميادين تجاربها لم تتعين إلا قليلاً ولم يتنوع العمل فيها إلا يسيرا

ورغم هذا فإن تطور علم الاجتماع وبلوغه الدرجة التي يقف عندها الآن مدين في كثير منه إلى تلك العلوم ، لأنها عملت

(١) أنظر كتاب « الأرض والتطور البشرى » لمؤلفه لوسيان فيفر Lucien Fevre كتاب « بيكاردى والمناطق المحيطة بها » لمؤلفه ديمنجون A. Demangeon

(٢) هذا الاصطلاح لم يقره العلماء إلا أخيراً ، وذلك بعد أن كثر استعماله لدى الألمان

(٣) منذ عام ١٨٦٩ ، والأمريكان منذ عام ١٨٧٩ . وأما كلمة أنتروبولوجي Anthropologie فقل استعمالها كثيراً ؛ غير أن العلماء الانجليز ظلوا يستعملونها حتى الآن . والفرنسيون هم أول من فكروا في تكوين هذا العلم ، فأنشأوا له كرسياً خاصاً في جامعة باريس شغله أرماندى كترفاج E. Quatrefages وألقى أول درس في هذا العلم يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٥٦ أنظر دائرة المعارف الفرنسية Encyclopédie Française ; T. VII. L'espèce Humaine Paris 1936 : 1. 7. 061 —